# المقدمة

الحمد لله الذي أعطى من رفع قدره بالعلم مكانًا عَلِيًا ، وشرّفه باللغة العربية وكان لفصيح الكلام كُفْوًا ولِيًا ، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد – صلى الله عليه وسلم – الذي خصّه ربُّه بجوامع كَلِمِه واتّخذهُ صَفِيًا ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فقد خرجتُ من بعض قراءاتي في مجال العربية وفنونها –في مرحلة الماجستير– بانطباع أثار دهشتي واستثار شفقتي وغَيْرَتي ؛ إذ وقفتُ على عالم مُحقّق مدقّق ، لا يقل عن أشهر النحاة تَمَكُّنًا ورسوخَ قَدَمٍ في مجال لغتنا العربية وآدابها – تأليفًا وشرحًا – قد غُمِطَ حقّه ، وأُهمِلَ ذِكْرُه ، فلم يَحْظَ من جانب من أتَوْا بعدَه من المؤلفين والمعنيِّين بكتابة السير والتراجم إلا بأسطر قليلة لا تكاد تتجاوز عدد أصابعَ اليدِ الواحدة ، بالرغم مما قدّمه للُغةِ الضاد من أيادٍ بيض وما أسهم به في إثراء المكتبة العربية من مصنّفات خطّية ظلّت حبيسةَ جدران دور الكتب والمكتبات قرابةَ ثمانية قرون ، ألا وهو عالم أستراباذ الكبير ركن الدين الأستراباذيّ ، النحويّ اللغوي ، الأديب ، حسنة طَبَرِسْتَانَ وأَوْحَدُ ذلك الزمانِ ، على حدِّ تعبير ياقوت الحموي – رحمه الله .

وإزاء هذا الانطباع الذي خرجتُ به من قراءاتي واطّلاعي آليتُ على نفسي أن أعمل جاهدًا على إخراج دراسة مستوعبة وبحث مستفيض أردُّ فيه للرجل حقّه المسلوبَ ، وأوفيه

قَدْرَهُ بشيء من الإنصاف والعدل، ولاسيما أنني كنت بصدد إعداد رسالة أتقدم بها لكلية دار العلوم – جامعة القاهرة لنيل درجة الدكتوراه في النحو والتصريف فوجدت الفرصة سانحة والموضوع يلحُّ عليَّ لتناوله، فاستخرتُ اللهَ العَلِيَّ القدير في أن أجعل من ركن الدين موضوعًا لرسالتي، ومن جهوده النحوية والصرفية محورًا يدور حوله بحثي ودراستي. وقد ارتأيت أن أشفع دراستي هذه بإخراج واحد من أهم كتبه إلى دائرة الضوء، إتمامًا للفائدة من جانب وإبرازًا لجهوده في الميدان الصرفي من جانب آخر، ليكون موضوع الرسالة: «ركن الدين الحسن الأستراباذيّ وجهوده النحوية والصرفية، مع تحقيق كتابه شرح شافية ابن الحاجب».

وما إن أخذتُ الأهبة وشحذتُ الهمّة لإعداد هذه الدراسة حتى تفتحت أمامي – بحمد الله وتوفيقه – مغاليق الأبواب وألقيت بين يديَّ مفاتيح الأسباب، وكأنَّ عالمنا ركن الدين كان كَنزًا مرصودًا، قَصُرتْ هِمَمُ المؤلفين والباحثين دون الوصول إلى حلِّ (طلاسمه) وفكِّ (تعاويذه) حتى جاء دوري فانفتح أمامي الكنز – بحمد الله – لأُنَصِّبَ من نفسي حارسًا عليه، مشيدًا بذُكره، واضعًا إياه في دائرة الضوء ليحتل مكانه بين علماء العربية الذين تربّعوا على عرش الشهرة والمجد.

وفي سبيل إخراج هذه الدراسة على الوجه الذي رسمتُه لها منذ الشروع فيها آليتُ على نفسي ألاّ أدخر وسعًا في جمع ما تفرّق من خبر ركن الدين ونشأته وحياته وأبذل قصارى جهدي

لإماطة اللثام عما قدّمه في سبيل خدمة اللغة العربية بصفة عامه والدراسات النحوية والصرفية بصفة خاصة من جهود صادقة ربما تنكبه في هذا الصدد من مشاقّ تشهدُ بها مؤَلفاته ومصنَفاته .

وكنت قد جعلتُ رسالتي هذه في قسمين رئيسين :-

القسم الأول جعلته خاصًا بركن الدين وجهوده النحوية والصرفية وقسمته إلى خمسة فصول تناولت في الفصل الأول عصره وحياته العلمية . وفيه ألقيت الضوء على الحالة السياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والدينية في عصره . وبعد ذلك انتقلت إلى المُتَرْجَم له ؛ حيثُ سُقْتُ ترجمةً ضافيةً له تناولتُ فيها اسمه ولقبه وكنيته ومولده ، ونشأته ، وحياته ، وموطنه ، وتنقلاته ، ومكانته العلمية والثقافية ، ومذهبه الفقهي ، وشيوخه وتلاميذه ، ثم انتقلت إلى آثاره وبينت الموجود منها وأشرت إلى المفقود ، وأفردت حديثًا لآثاره النحوية والصرفية التي وصلت إلينا .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن منهجه في معاجة قضاياه النحوية .

وفي الفصل الثالث تحدَّثت عن مذهبه النحوي ، وأثبتُّ - بما لا يدع مجالاً للشك - أن الرجل بصريّ المذهب في النحو .

وفي الفصل الرابع تناولت بالحديث شواهده النحوية على اختلاف أنواعها ، وأوضحت موقف الرجل من هذه الشواهد .

وأما الفصل الخامس وهو آخر فصول القسم الأول فجعلته خاصًا بإبراز جهوده في المجال الصرفي وذلك من خلال كتابه (شرح الشافية).

والقسم الثاني خاصٌ بتحقيق الكتاب – وهو كتاب (شرح شافية ابن الحاجب) لركن الدين موضوع الدراسة.

وقد ارتأيت الآن – وأنا بصدد نشر الرسالة – أن أفصل بين قسميها جاعلاً كلّ قسم منهما في كتاب مستقلّ؛ الكتاب الأوّل وسمته بـ (ركن الدين الحسن الأستراباذيّ وجهوده النحوية والتصريفية). والكتاب الثاني جعلته خاصًّا بتحقيق الكتاب ودراسته.

وها هو الكتاب الأوّل الخاصّ بعالم أستراباذ الكبير ركن الدين الأستراباذيّ وجهوده النحوية والتصريفية. وقد أجريت عليه بعض التعديلات في ترتيب الفصول وفي المادة العلمية.

أما عن منهج البحث في هذا الكتاب فقد بذلت فيه أقصى الطرق ليكون نموذجًا عاليًا تتمثّل فيه المنهجية الحديثة بأجلى صورها، ومن مظاهر هذه المنهجية:

- أولاً: المنهج التاريخي في تتبع الفكرة حسب التسلسل الزمني منذ نشأتها ثم في أطوارها الملاحقة عبر القرون، وقد طبقت هذا في كل ما يمكن التطبيق فيه، وذلك مثل تحقيق اسم ركن الدين وما يتعلق به من الكُنى والألقاب، وتحقيق نسبه، وتحقيق سنة ولادته، وكذلك سنة وفاته، وغير ذلك.

- ثانيًا: الاعتماد على آثار المُتَرْجَمِ له في استخلاص مذاهبه منها، وجعل الراويات التاريخية – إن وجدت – في المرتبة الثانية، فما اتفق منها مع الآثار قبلناه وما اختلف معها – بعد البحث والتمحيص رددناه.
- ثالثًا: توثيق الآثار بالطريقة المنهجية، وتتمثل في:

أ– البحث عن الخصائص التفكيرية والتعبيرية، واستخراجها من نفس الأثر المراد توثيقه على ضوء ما ثبت للمؤلف من هذه الخصائص، فإن اتفقت مع الخصائص التي انتهى إليها البحث للشخص المترجم له كان ذلك توثيقًا أيَّ توثيق، وإن اختلفت عنها كان موضع شك إلى أن نعثر على مرجع آخر من بين مظاهر التوثيق الأخرى

ب– البحث عن نصوص خارجية أُخِذَتْ من الكتاب نفسه ومقارنتها بما جاء فيه.

ت– تحقيق عنوان الكتاب؛ فقد تختلف العناوين والأثر واحد.

ث– تحقيق النسخ الباقية منه، ومقابلة بعضها ببعض – إن تعددت – والبحث عما قد يوثقها من سماعات أو إجازات.

- رابعًا: تشخيص المترجم له تشخيصًا يمثله أمامنا بشرًا سويًا كما كان في حياته من هدى وصلاح، أو مجون وضلال.. كيفما كان، في أخلاقه وصفاته ورحلاته وعقيدته وهواه، مع إبراز الخطوط الرئيسة في شخصيته، كلما أمكن ذلك.

ولا يفوتني في هذه المقدّمة أن أشير إلى نقطة مهمّة ، تتعلق بعالمنا ركن الدين : حيث يلتبس الأمر على كثير من الناس فيظن أغلبهم أن ركن الدين ورضي الدين شخص واحد ، معتمدين على أن كلا منهما قد شرح مقدمَتَيْ ابن الحاجب .

وأبادر فأقول : إن ركن الدين الأستراباذي ليس هو رضي الدين الأستراباذي ، ولا يجمع بين العَلَمَيْنِ سوى نسبتهما إلى بلدهما "أستراباذ" من بلاد فارس وما وراء النهر ، تلك البقعة العلمية الحافلة بالعلماء ، والتي أخرجت خلقًا كثيرين من أهل العلم في كل عصر .

وبعد :

فها أنذا أقدِّم دراستي هذه عن عالمنا ركن الدين إلى كلِّ من يهمه البحث في اللغة العربية وعلومها ، وآمل أن أكون قد وفقت في إخراجها على الوجه المرجوّ ؛ فإن كنت قد وفقت فيما سعيت إليه فذلك من توفيق الله عز شأنه وتجلت مشيئته ، وإن كانت الأخرى فحسبي أني قد حاولت وكنت صادق العزيمة .

وأختم كلمتي هذه بأن أضرع إلى الله العلي القدير . . داعيًا أن يوفقنا للعمل لوجهه الكريم في كل ما هو خير للإسلام والمسلمين واللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم . . . إنه سميع مجيب .

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

د . عبد المقصود محمد عبد المقصود

الرياض : العاشر من شهر صفر ١٤٢٥هـ

*******

# التمهيد

## عصر ركن الدين الأستراباذي

### أ - الحالة السياسية في عصره:

شهد بداية القرن السابع الهجري مولد عالم جليل من علماء الدولة الإسلامية هو: ركن الدين الحسن بن أحمد الأستراباذى النحوي اللغوي الأديب. عاش في عصر[1] كان العالم الإسلامي آنذاك يموج بالفتن والقلاقل والاضطرابات ويعمّه الخراب والدمار؛ حيث كان أكثره تحت سيطرة المغول سلالة جنكيز خان، حيث امتد سلطان هؤلاء المغول فيه من حدود الهند شرقًا إلى سوريا غربًا وسيطروا سيطرة كاملة، فيما عدا فترات قصيرة كانت السيادة المؤقتة في فارس والعراق للفرس والترك.

وكانت العراق وفارس في سلطة الدولة الألخانية، وهي مغوليّة، ثم صارت الأمور إلى الدولة التيمورية، وهي مغولية أيضًا، وتخلّل ذلك فترات صارت الأمورُ فيها إلى دولتين فارسيتين (الجلابرية، والمظفرية)، وأخريين تركيتين هما (القراقيونلية، والأقاقيونلية). وكانت تركستان

---

1 - يطلق على هذا العصر (العصرُ المغوليّ)، نظرًا لسيطرة المغول آنذاك على معظم الممالك الإسلامية، ويُؤرَّخ له بسقوط بغد· على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ، وحتى دخول العثمانيين مصر سنة ٩٢٣ هـ ويطلق عليه أيضًا (عصر سلاطين المماليك) لغذ· سيطرة المماليك على جزء كبير من العالم الإسلامي، وذلك من حدود سوريا شرقًا إلى حدود مصر غربًا بما في ذلك شبه الجـ ، نعربية، ويُؤرَّخ له من سنة ٦٤٦ هـ وحتى سنة ٩٢٣ هـ بدخول العثمانيين مصر أيضًا.

وأفغانستان في قبضة الشغطائية، ثم صارت الأمور إلى التيمورية، وكلتاهما مغولية[1].

والذي حدث أن هؤلاء التتار[2] قد زحفوا كالجراد بقيادة جنكيزخان على أواسط آسيا وغربها منذ عام ٦٠٦هـ، فملكوا كثيرًا من البلاد، وقتلوا ما لا يُحْصَى من أهلها حتى بلغوا خُرَاسَانَ فانتزعوها من ملكها خُوَارَزْم شَاه عام ٦١٧هـ، بعد أن أفنوا عددًا كبيرًا من مسلميها ثم عبروا نهر جيحون، وقصدوا مدينة بَلْخ، وساروا إلى نيسابور فملكوها لضعف أهلها عن مقاومة هؤلاء التتر الكفرة المخربين، وأخرجوا أهلها إلى الصحراء فقتلوهم وسَبَوْا نساءهم وخرَّبوا المنازل، ثم سارت طائفة منهم إلى طوس ففعلوا بها كما فعلوا بغيرها وخرّبوها، ولم يسلم من شرِّهم وفسادهم شيء، كما قال المؤرِّخ ابن الأثير[3].

---

1- ينظر: تاريخ آداب اللغة العربية: ٣/١١٠.

2- التتار أمم وثنية جاهلة من الجنس المغوليّ الأصفر، منهم الياقوتية والجيرجيزية والساموريّة. ومساكنهم الأولى الأطراف الشمالية لبلاد الصين، ومنذ الأزمنة السحيقة كانوا يعيشون عيشة البداوة، ويخضعون لأحد ملوك الصين، ثم نجم فيهم رجلٌ قويّ الشكيمة شديد البأس، استطاع أن يَملك عليهم، وأن يفوز بعرش الحكم فيهم، ودانت له أمم التتار جميعًا، وأخذ يقودهم من نصر إلى نصر، حتى خضع لحكمهم الأمم المجاورة، ذلك الرجل هو جنكيزخان. ومن صفات هؤلاء التتار الشجاعة وشدة البأس وحب البطش، وكان من أعظم ملوكهم بعد جنكيز خان حفيده هولاكو خان الذي نكبت بغداد على يديه سنة ٦٥٦هـ، وتيمور لنك الذي خرب بلاد الشام، ومنهم أيضًا أولوغ بك وطغرك بك، وأُوزخان بك، وغازان، وأبو سعيد، وغيرهم.

(نقلاً عن: عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، ص٧، ٨ بتصرف)

3- ينظر الكامل في التاريخ: ١٠/٤٢١.

وبعد جنكيز خان جاء حفيده هولاكو خان، فاتجه إلى الدولة العباسية ومقرّها بغداد وذلك في سنة ٦٥٤هـ، وفي طريقه عرّج على قلعة الموت ففتحها، وأخذها منهم، وقتل من فيها ثم استولى على الرّيّ، ثم عرّج على مدينة بُخارا، وكذلك مدينتي سمرقند وبَلْخ، فأحدث بها وبأهلها من الدمار والهلاك والخراب ما أحدث بغيرها، ثم قصد بغداد سنة ٦٥٦هـ، فمكّن له الوزير الشيعيّ ابنُ العَلْقَمِيّ[1] وزيرُ الخليفة العباسي المستعصم بالله[2] من دخول بغداد والاستيلاء عليها وزلزلة الأرض تحت أرجل الخليفة المستعصم[3] وذلك نظرًا للخلاف الذي كان قائمًا بينه وبين الخليفة، أو لنقل: الخلاف الكبير الذي كان قائمًا آنذاك بين الشيعة وأهل السنة فلما استولى هولاكو على بغداد أباحها لجنده أربعين يومًا، وقتل منها، كما يقول بعض المؤرخين – ما يقرُبُ من مليونَيْ مواطن، وخرّب عمرانها، ورمى كتبها في نهر دِجْلَة[4].

وقد وصف سِير تُوماس أرنولد ما قام به المغول من ضروب الوحشية في غزواتهم للبلاد الإسلامية بقوله: "لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبًا أشد هَوْلاً من غَزَوات المغول؛ فقد انسابت جيوشُ جِنْكِيزْ خَان انسيابَ الثلوج من قُنَنِ الجبال، واكتسحت في

1 – في فوات الوفيات فصل عن ابن العَلْقَمِيّ، ينظر في: ٣/٢٥٢–٢٥٥ .

2 – ينظر ترجمته في البداية والنهاية: ١٣/٢٠٤–٢٠٦

3 – ينظر المصدر السابق: ١٣/٢٠٠–٢٠١ .

4 – ينظر ظهر الإسلام: ٤/١٩٣، وكذلك: عصر سلاطين المماليك المجلد الثالث، ص٩) .

طريقها الحواضرَ الإسلامية ، وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة ، ولم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى خرائبَ وأطلال بالية ، وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصورُ الفخمةُ المحاطة بالحدائق الغنّاء والمروج الخضراء ، فبعد أن تحوّل جيش المغول عن مدينة هراة خرج أربعون من أهلها من مخبئهم فرارًا من الموت ، وكان هؤلاء التعساء هم البقية الباقية من سكانها الذين كان يربو عددُهم على المائة ألف ، ووقفوا مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رؤوسِهم يبكون أطلالَ مدينتِهم ، وقد أخذ الهَلَعُ والفَزَعُ من نفوسهم كلَّ مأخذ [1] .

والواقع أن غزو المغول للشرق الأدنى سنة ٦١٧هـ هو أعظم كارثة حلّتْ بالإنسانية . ويصف المؤرخ ابنُ الأثير هَوْلَ تلك الكارثة بهذه الكلمات : "لقد بقيتُ عدّةَ سنين مُعْرِضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها كارهًا لذكرها ؛ فأنا أقدّم رِجلاً وأؤخِّرُ أخرى ، ومن الذي يَسْهُلُ عليه أن يكتب نَعْيَ الإسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكرُ ذلك ، فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا ، إلا أنني حثّني جماعةٌ من الأصدقاء على تسطيرها ، وأنا متوقف ، ثم رأيتُ أنّ ترك ذلك لا يجدي نفعًا ، فنقول : هذا الفصل يتضمّنُ ذِكْرَ الحادثةِ العُظمى والمصيبةِ الكبرى ، التي عقت الأيامُ والليالي عن مثلها ، عمّت الخلائق وخصّت المسلمين ، فلو قال قائل : إنّ العالم منذ خلقَ الله - سبحانه وتعالى - آدمَ إلى الآن لم يبتلوا بمثلها

---

1- تاريخ الإسلام السياسي : ٣ / ١٤٠ .

كان صادقًا ؛ فإنّ التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها . . . وهؤلاء لم يُبقُوا على أحد . بل قتلوا النساءَ والرجالَ والأطفال ، وشقّوا بطونَ الحواملِ ، وقتلوا الأجِنّةَ ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العَليّ العظيم ؛ فهذه الحادثة استطار شَرَرُها وعمّ ضَرَرُها ، وصارت في البلادِ كالسحاب استدبرته الريحُ . . . .[1] .

## ب - الحالة الاقتصادية والاجتماعية في عصره :

قلنا إن هجوم التتار على المجتمع الإسلاميّ كان هجومًا مُدَمِّرًا ومُخَرِّبًا اجتاح كلَ شيء أمامه من أخضر ويابس : خرّبوا الحضارات ، وهدّموا القصور والمنازل ، وفتّشوا البيوت وأخذوا ما فيها من أموال وغيره ، وشرّدوا أهلها ، وأصبح المجتمع الإسلامي الخاضع لسيطرتهم يعاني من أزمات طاحنة ، وتدهورتْ حالةُ أفراده الصحِّية وغير الصحِّية ، وعمّ هذا المجتمعَ خرابُ والدمارُ .

أمّا عن حال المجتمع الإسلامي في مصر وشبه الجزيرة العربية ، ذلك المجتمع الجديد الذي وفد إليه علماءُ المشرق الفارّون من وجه التتار ، ذلك المجتمع الذي وقاه الله شرّ هجماتِ التتار المخرّبين ، فكان الوضع فيه مختلفًا ؛ حيث كان أكثرَ غنى وثراءً ولكنه كان مُقَسّمًا إلى طبقات اتسعت الهُوّةُ بينَها ؛ فهناك طبقةُ رجالِ الدولة ، وهي الطبقة المرفّهة المنعّمة ، وهي طبقة

---

1 - الكامل في التاريخ : ١٠/ ٣٩٩ .

سلاطين المماليك والأمراء وأتباعهم من جند المماليك، وهناك طبقة التجار، ثم طبقة الباعة، ثم طبقة الفلاحين، ثم طبقة الفقراء، وهم جُلُّ الفقهاء وطلاب العلم، ثم طبقة الحرفيّين والأجراء، ثم طبقة المتسوّلين [1].

هذا وقد انتشر التصوف في المجتمع الإسلاميّ بعد سقوط بغداد وتعددت الطرق الصوفية، وانتشرت انتشارًا عريضًا، وتغلغلتْ في أوساط الشعب والخاصّة على السواء، وتعددت أسماؤها وأسماءُ رجالها وشيوخها، وشاعت فلسفةُ احتقارِ الدنيا في كتابات العلماء ورجال الدين والكُتّابِ، ورجالِ الأدب.

والتصرف في صورته الاجتماعية مظهرٌ من مظاهر الانصراف عن الحياة الدنيا لحقارتها وخِسّتِها، كما يقول تاجُ الدين السُّبْكِيّ المتوفى سنة ٧٧١هـ [2]. والإحساس بحقارة الحياة الدنيا يتزايد في أوقات الشدة والضيق، ولاشك أن ما كان فيه العالم الإسلامي آنذاك هو أقصى درجات الشدّةِ والضيق [3].

## ج– الحالة العلمية والفكرية والثقافية في عصره:

ظلّتْ بغـــــدادُ زُهاءَ خمسة قرونٍ العاصمةَ الروحيّةَ والفكريةَ للمسلمين قاطبةً ولكلِّ

---

1 – ينظر: إغاثة الأمة بكشف الغمة، لتقي الدين المقريزي، ص ٧٢.

2 – ينظر: معيد النعم ومبيد النقم، ص ٩٥.

3 – ينظر: الأدب في العصر المملوكي: ١/١٩٨، وينظر كذلك: ظهر الإسلام: ٤/٢١٩.

الناطقين بلغة الضادِ، يَنزَحُ إليها العلماء من أبناء الأوطان الأخرى يشهدون حلقاتِها ودروسَ علمائها ومناظراتِ أدبائها ومحاورات ظرفائها، ومسابقاتِ شعرائها ومفاكهاتِ أئمّةِ المجالس فيها وامتلأت مكتباتُها ودورُ كتبِها بذخائرَ علميةٍ نفيسةٍ، وأصبحت بغدادُ - بحقّ - دارةَ العلمِ وهَالَةَ الأدبِ - كما يقال - واستمرّتْ على هذه الحال إلى أن وقعت فريسةً في يد التتار في عام ٦٥٦ هـ - كما قلنا - ففرّقوا أهلها وقتلوا علماءها وشرّدوا مَن نجا منهم من القتل، وألْقَوا بكتبها في نهر دِجْلَة.

وعندما اكتسح التتارُ الممالكَ الإسلاميّةَ خرّبوا الحضارات، وهدّموا العمارات، وكانت هذه العمارات نتيجة حضارة قرون، وكانت الكتب التي ألقَوا بها في نهر دجلة نتيجة ثقافة قرون والحضاراتُ والعلومَ إنما تُبنَى على ما قبلها، وتؤسَّسُ على ما سبقها، وهي كالماء للنبات الغضّ فإذا حُرِمَ النباتُ الغَضُّ الماءَ ذَبُلَ وجفّ بعد قليل، وكذلك كان العلم والحضارةُ الإسلاميان، هذا فضلاً عمّا أُصِيبَتْ به الثقافة من نَكَبات للعلماء، فإذا بَقِيَ شيءٌ من العلم فقليلٌ يَكْفِي للتقليد ولا يبعث على التجديد [1].

وبعد هذه الكارثة العظيمة التي حلّتْ ببغدادَ وبُخَارا ونيسابُورَ والرِّيِّ وسَمَرْقَنْد وبَلْخ، وغيرها من مدن العلم والأدب، انتقل العلم وانتقلت مراكزه إلى القاهـــرة، وأصبحت القاهرةُ

1 - ظهر الإسلام: ٤ / ١٩٣.

خليفة بغدادَ، وعُقِدَ لها لواءُ الزعامة الفكرية والثقافية منذ منتصف القرن السابع الهجريّ، وتوافد عليها علماءُ المشرقِ والمغربِ من أمثال ابن خلّكان الإربلي، وابن مالك الأندلسيّ، وابن منظور الإفريقي، وابن خلدون المغربيّ، وغيرهم .

وقد شعر علماءُ ذلك العصرِ بنقص الكتب في أيامهم، فقال الإمام السيوطيّ في المُزْهِر [1] – بعد ذِكرِ حكايةِ الصاحبِ بن عبّاد، لما دُعِيَ للذهاب إلى بعض الملوك فاعتذر بمشقة الانتقال؛ لأنه يحتاج إلى ستين بعيرًا ينقل عليها كتبَ اللغة التي كانت عنده: "وقد ذهب جُلُّ الكتبِ في الفتن الكائنة بين التتر وغيرهم؛ بحيث إن الكتبَ الموجودةَ الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا يجيء حِمْلَ جَمَلٍ واحد".

وإذا كان السيوطيّ – رحمه الله – يبالغ في ذلك إلا أنه إنْ دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على مقدار قلقِ العلماء لضياع الكتب بالفتن، ويدلُّ أيضًا على كثرة الكتب التي ضاعت، سواء بالحرق أو بإلقائها في نهر دجلة .

وكان إحراقُ الكتب قد بدأ في المملكة الإسلامية قبل ذلك بسبب التنازع بين الفرق الإسلامية؛ فكلُّ فرقة تحاول إحراقَ كتب الأخرى؛ كإحراق السلطان محمود الغزنوي لكتب المعتزلة. وناهيك عمّا أُحْرِق من كتب العلماء المتَّهمينَ بالزندقة والفلسفة، وهي كثيرة، ولعل

---

1- ١/٤٩ .

بينها ما ليس مثله بين ما بقي – كما قال جرجي زيدان [1]

أمّا التتار فبالغوا في الإحراق والتخريب؛ قال ابن تَغْرِي بَرْدِي: " وخَرِبَتْ بغدادُ الخرابَ العظيمَ، وأُحْرِقَتْ كتبُ العلم التي كانت بها في سائر العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا، قيل: إنهم بَنَوْا بها جِسرًا من الطين والماء عِوَضًا عن الآجُرِ" [2] .

وإذا كان الغزو المغولي للشرق الأدنى قد نتج عنه ذلك الركودُ العلميُ والأدبيُ، إلا أنه كان ركودًا مؤقتًا؛ حيث أخذ النشاط يَدِبُّ في هذين الميدانين، وذلك بعد أنْ استقرّ المغول في البلاد التي فتحوها؛ ويرجع ذلك إلى أن بعض المؤلفات العلمية قد نجت من أيدي المغول، وبخاصة ما كان منها في المدن الجنوبية من البلادِ الخُوارَزْمِيَّة

ثم أخذ المغول يتقبّلون آراء المسلمين وأفكارهم، ورغبوا تدريجيًا في اعتناق المدنية الإسلامية . ليس هذا فحسب، بل وجدنا الكثيرين من سلاطينهم قد اعتنق الإسلام، مثل أبغا بك، وغازان، وأبي سعيد وغيرهم، وبرز كثير من العلماء والأدباء بفضل تشجيع المغول لهم، ومن اشهر هؤلاء في عهد هولاكو العلامة نصير الدين الطُوسِيّ –أستاذ ركن الدين الأستراباذي . وقد امتاز الطُوسِيُّ بأبحاثه في علم الفلك فشجعه المغول وبَنَوْا له مَرْصدًا عظيمًا في مدينة مَرَاغَةَ بأَذَرْبِيْجَانَ، ومكتبة بجانبه يقال إنها كانت تَحْوِي أربعمائة ألف من المجلدات .

---

1- ينظر : تاريخ آداب اللغة العربية ١١٣/٣ .

2- النجوم الزاهرة : ٥١/٧ .

وقد امتاز الطُوسِيُّ أيضًا بمؤلفاته القيِّمة في الجبر والهندسة والطبيعة والحكمة والأخلاق وآلات الرصد ، كما اشتهر بترجمة كثير من الكتب اليونانية في مختلف العلوم ، وكان من أكبر المشتغلين بالعلوم العقلية بعد ابن سينا .

وقد حاول الطُوسِيُّ جاهدًا أن ينقذ حياة أكبر عدد من العلماء وأن يحفظ أكبر عدد من الكتب الباقية ، لذلك اتّخذ من مرصد مراغة حجّة لجمع الجمِّ الغفير من العلماء وحمايتهم من القتل ، واستخلاص الكتب وحفظها والعناية بها ، وكان من نتيجة ذلك أن انقلب الأمر وعاد المغول بعد ذلك مسلمين منافحين عن الإسلام .

ونبغ في هذا العصر علماء كثيرون من بينهم : ابن مالك ( ت ٦٧٢هـ ) ، ومحي الدين النووي ( ت ٦٧٦هـ ) ، ورضي الدين الأستراباذي ( ت ٦٨٦هـ ) ، وجمال الدين بن منظور الإفريقي ( ت ٧١١هـ ) ، وركن الدين الأستراباذي ( ت ٧١٥هـ ) ، وابن آجرُّوم الصِنْهَاجِيّ ( ت ٧٢٣هـ ) ، وأبو حيان ( ت ٧٤٥هـ ) ، وتقي الدين السبكي ( ت ٧٥٦هـ ، وابن خلدون المغربي المتوفَّي سنة ٨١٨هـ ، ومجد الدين الفيروزابادي المتوفَّي سنة ٨١٧هـ . وغيرهم .

وبالجملة يمكن القول بأنه بالرغم مما حلَّ بالأمصار الإسلامية من خراب ودمار على أيدي التتار ، فإنّ سند التعليم كان لا يزال قائمًا كما قال العلامة ابن خُلدون — رحمه الله تعالى [1] .

---

1 – ينظر : تاريخ ابن خلدون : ٣٦١/١ .

د – الحياة الدينية في عصره :

كانت الحياة الدينية في بلاد المشرق العربي آنذاك أوفر حظًّا من غيرها من الحَيَوات ؛ نظرًا لأنّ المماليك كانوا يدينون بالدين الإسلاميّ ، وكانوا يعرفون مدى تأثير الروح الدينية على الناس في الشرق العربي ، فقد أرادوا أن يتخذوا من الدين دعامة قوية يشجبون عليها كل مساوئهم ؛ فكانوا يبالغون في الظهور بالمظاهر الدينية ؛ من بناء المساجد والزوايا ، والاحتفال بالأعياد الدينية وإقامة الموالد والاهتمام ببناء الأضرحة للأولياء .

وكان العلماء النازحون من الأقطار الإسلامية يتفاعلون مع هذا الجوّ الدينيّ ومع هذه الطبيعةِ الدينيّةِ ، وبخاصة أنّ هؤلاء العلماء المضطهَدين الفارّين من وجه التتار ، والذين كانوا يدينون بالدين الإسلامي الحنيف ، كانوا متمسكين غاية التمسك بأصول دينهم ومقررات شريعتهم الإسلامية الغرّاءِ ، يدافعون عن الإسلام والمسلمين وخاصة في تلك الأوقات العصيبة التي يقفون فيها أمام أعدائهم ممن لا دين لهم ولا خَلاق .

في ظلِّ هذا الجوّ السياسيِّ المائجِ بالفِتَنِ والقلاقِلِ والاضطراباتِ ، وفي ظلِّ هذه الحياةِ الاجتماعيةِ والاقتصاديةِ القاسيةِ . . . في ظلِّ هذه البيئة العلميةِ الناضجةِ بالتنافسِ المزدهرة بالتأليفِ الحافلةِ بالموسوعات عاش عالمنا الكبير ، ركن الدين الحسن بن أحمد الأستراباذي ، وسنرى في السطور التالية – إن شاء الله تعالى – مدى التفاعل بينه وبين بيئته مؤثِّرًا ومتأثِّرًا .

---